اضـواء على تاريخ بابـ الذراع

الدكتور معاوية ابراهيم

قامت سنة ١٩٢٤ المدرسة الامريكية للابحاث الشرقية في القدس تحت اشراف وليم أولبرايت بأعمال حفر على نطاق ضيق في موقع باب الذراع على الجانب الشرقي للبحر الميت في منطقة تدعى اللسان [١] وهو من أوائل المواقع الاثرية التي جرت فيها أعمال الحفر في منطقة شرقي الاردن الا أن النتائج التي ظهرت للقائمين على العمل لم تنشر الا بعد مضي عشرين سنة لعدم تمكن هؤلاء من اعطاء تاريخ دقيق للاثار المكتشفة أو على الاقل انسابها الى مرحلة معينة من حلقة التسلسل التاريخي ، كما لم يلاحظ الحفارون الاوائل علاقة المكتشفات هذه مع تعاقب الارضيات السكنية التي تشكل التعاقب الزمني للموقع الاثري · حتى وبعد الانتهاء من العمل بزمن طويل لم يكن بالامكان تأريخ المكتشفات من لقى وأساسات معمارية الا أنها نسبت الى العصر البرونزي القديم بشكل عام [٢] ، دون ملاحظة تطور الاواني الفخارية ، من حيث صناعتها ، أشكالها وأصنافها ، ولم تكن مقارنتها مع مكتشفات معاصرة في فلسطين صحيحة تماما ·

قال أولبرايت أنه غير محتمل أن يغطي فخار باب الذراع فترة زمنية تتجاوز القرنين على الاكثر وأن آخر تاريخ هو القرن الحادي والعشرون ق·م وأعاد معظم الاواني الفخارية الى القرن الثاني والعشرين ق·م [٣] · لدى اعطائه مثل هذه الارقام التاريخية اعتمد أولبرايت على مقارنات من مواقع أخرى مثل أريحا وتل بيت مرسيم (فلسطين) وأدر على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال الشرقي من مدينة الكرك ، علما بأن الحفر في الموقعين الاخيرين قد جرى من قبل أولبرايت نفسه ·

قلما ورد ذكر باب الذراع في تقارير علماء الآثار وبقي الموقع بعيدا عن أنظار الزوار حتى عام ١٩٦٥ · ففي ذلك العام لاحظ العاملون في الاثار في القدس أوان فخارية في حوزة تجار العاديات وبين أيدي السياح والمواطنين الذين أعادوا مصدرها الى باب الذراع فأسرعت دائرة الاثار بالتعاون مع المدرسة الاميركية للابحاث الشرقية في القدس للقيام بأعمال حفر منظمة في هذا الموقع تحت اشراف الدكتور بول لاب ، توقفت الحفريات بعد ثلاثة فصول متتالية (١٩٦٥ ـ ١٩٦٧) قبل اتمام العمل [٤] ·

كشفت الحفريات النقاب عن موقع أثري نعتبره من أهم المواقع الاثرية في البلاد ولم تسهم نتائج على ملاحظاته واقتراحاته هذا بالاضافة الى مقالاته وابحاثه التي استشهد بها هنا · P. Lapp

The Cemetery at Bab ed-Dra, Jordan, in : Archaeology 19/2 (1966), p. 104ff; RB 73 (1966), p. 552ff; RB 75 (1968), p. 86ff. Bab ed-Dra' Tomb A 76 and the Early Bronze I in Palestine, in: BASOR 189 (1968), p. 12ff; The Cemetery at Bab ed-Dra', Jordan in: Archaeological Discoveries in the Holy Land, compiled by the Archaeoloical Institute of America, New York (1927), p. 35ff.

١) W. Albright
The Archaeological Results of an Expedition to Moab and the Dead Sea, in: BASOR 14 (1924), p. 2ff.; Bibliotheca Sacra LXXX, p. 262ff.; Biblica 5, p. 413ff.

٢) W. Albright
Early Bronze Pottery from Bab ed Dra'in Moab, in: BASOR 95 (1944), p. 3ff.

٣) انظر حاشية (٢)

٤) اتقدم هنا بالشكر الجزيل للدكتور بول لاب (المتوفي)

الدراسات عنه في حل عدد من المشكلات في حلقة التسلسل التاريخي فحسب بل أنها أضافت معلومات جديدة عن حياة وتقاليد أناس الالف الثالث ق٠م في المنطقة وأعطت أرقاما تاريخية جديدة غير التي ذكرها أولبرايت كما ورد أعلاه ٠

تركزت أعمال الحفر والاستقصاء الاثري على مقبرة تشغل مساحة واسعة وفي منطقة سكنية تنسب اليها بعض المقابر (لوحة رقم ٤) تبين المقابر التي تم حفرها ٠

تعتبر المقبرة من أغنى المقابر التي عرفها الشرق القديم وأكثرها استمرارا في الاستعمال اذ لا نبالغ اذا قلنا أن فقط عدد الاواني الفخارية التي عثر عليها خلال الفصول الثلاثة يتجاوز ٢ر٥ مليون آنية ، عدا الادوات المعدنية واللقى الاخرى ، كما واستمر استعمال المقبرة دون انقطاع فترة زمنية تزيد على الالف سنة ، أي من أواخر الالف الرابع حتى أواخر الالف الثالث ق٠م٠ يبدأ تاريخ الموقع مع موجات بشرية هاجرت الى المنطقة في هذا الوقت المبكر ٠

يلاحظ المتتبع لآثار المنطقه والتطور الحضاري فيها أن القادمين الجدد مع بزوغ العصر البرونزي القديم قد استخدموا طريقة جديدة لدفن موتاهم لم نعرفها من قبل وأصبحت مقابرهم ومحتوياتها مع ما يحيط بها من تقاليد دينية أهم مصدر لنا للتعرف على تاريخ فلسطين وأجزاء أخرى من شمالي سوريا في هذه المرحلة التاريخية ٠

بالنسبة لعصور سبقت فقد عرفنا طرق أخرى لدفن الموتى : ففي العصر الحجري ، المتأخر المرحلة التي سبقت استعمال الفخار (Pre-Pottery Neolithic) عثر الحفارون على الموتى مدفونين تحت مصاطب البيوت (٥) وبعد ظهور الفخار (Pottery Neolithic) نقلت جثث الموتى خارج المنطقة السكنية وأودعت لقوى الطبيعة دون أن يولوها اهتمامهم (٦) أما في العصر الحجري النحاسي (حضارة غسول ـ بئر السبع) فقد أولوها اهتماما أكثر فهي إما ان وضعت في جرار كبيرة كما هو الحال في تليلات الغسول أو في صناديق من الفخار مستطيلة الشكل محاطة بزخارف وأشكال هندسية وحيوانية ، وأحيانا صنعت من الحجر ، غالبا ما عثر عليها مصحوبة بعدد من الاواني الفخارية في كهوف بعيدة عن مناطق السكن (٧) يلي ذلك المرحلة التي تنسب اليها مقابرنا في باب الذراع والتي أمكن تقسيمها الى ثلاثة أنواع رئيسية يمثل كل منها مرحلة زمنية ٠

النوع الاول والاقدم (٨) (Shaft tombs)
(لوحة رقم ١ ـ أ، ب) عبارة عن تجويف عمودي مقطوع في الصخر الطري (ترسبات متحجرة)

٥) K. Kenyon Archaeology in the Holy Land p. 53.

٦) Ibid Burial Customs at Jericho,

٧) تتطلب هذه الصنادق دراسة تفصيلية لاهميتها من الناحيتين الدينية والحضارية في الالف الرابع ق٠ م٠ ، على اي حال فقد عثر عليها بكميات كبيرة ومتنوعة في يازور Azor بالقرب من تل ابيب وام قطنه ، راجع :
J. Perrot, Une tombe à Ossuaires du IVe millénaire à Azor, près de Tel-Aviv, in: Atiqot 3 (1961), p. 1ff.
R. De Vaux, Palestine during the Neolithic and Chalcolithic periods, in: CAH 47 (1966), p. 32ff.

٨) هناك وصف تفصيلي ودقيق للدكتور بول لاب من خلال مثال لاقدم مقابر باب الذراع ، راجع
P. Lapp, BASOR 189 (1968), p. 14ff.
مقابر اريحا التي تطلق عليها كائلين كنيون
Proto-Urba A, B.
K. Kenyon, Jericho I, p. 4ff., figs. 2-22;
Jericho II, p. 3ff., figs. 1-13
في هذا العدد من الحولية دراسة شاملة ،
أعداد كبيرة من هذه القبور كشف عنها في تل المتسلم و (مجدو)

P.L.O. Guy,
Megiddo Tombs, in: OIP 33 (1938), Tombs 9, 903, 1103, 1106, 1126, 1127
R. M. Enberg
Notes on the Chalcolithic and Early Bronze Age
G. M. Shiptom,
Pottery of Megiddo, in: SAOC 10 (1934)
كذلك مقابر تل الفارعة التي ينسبها ديفو الى العصر الكالكوليثي المتأخر راجع :
R. De Vaux,
Les fouilles de Tell el-Far'ah, in: RB 68 (1968) p. 557ff.
J. L. Hout ,
Typologie et Chronologie Relative de la céramique du Bronze Ancien à Tell el-Far'ah, in: RB 74 (1967), p. 517ff.
قام بتصنيف مقابر عي Proto Urban الدكتور كالواي ، راجع :
J. A. Calaway ,
Pottery from the Tomb at Ay, London, (1964).

يتراوح عمقه ١٠ر٢ م يتسع في قسمه السفلي ويتفرع عنه تجويف آخر أو أكثر تم فيها دفن الموتى · المدخل بيضوي الشكل تقريبا وباتجاه الاسفل سرعان ما يأخذ شكل مستطيل زواياه قوسية ثم يتسع عند القاعدة ويأخذ في الاستدارة ·

مقابل ذلك يوجد بين هذه القبور مداخل اسطوانية الشكل بزوايا منحنية · وقد أحكم سد المداخل بتراب كلسي من نفس الصخر الذي قطع فيه القبر ، وفي حالات أخرى أفضل من الاولى صنع للمدخل غطاء على شكل لوحة حجرية كبيرة وأجلس بدقة تحت الفوهة بقليل · أما مداخل التجاويف (الغرف) الجانبية فقد أغلقت بواسطة ثلاثة أو أربعة حجارة غير منتظمة الشكل تتخللها حجارة أصغر حجما ، كما وجد خلف كل مدخل درجة تؤدي الى أرضية الغرف الفرعية ·

والجدير بالذكر أنه تم الكشف عن أكثر من خمسين غرفة تابعة لثلاثين قبرا من نفس الفترة الزمنية ولم يسبق أن فتحت منذ أن أغلقت أول مرة ، وظهر في السقوف وبعض الواجهات الاخرى حزوز القطع من جراء شفرات صوانية بلغت أطوالها ١٠ × ٣ر١ سم ·

محتويات القبور : غالبا ما احتوى القبر على كوم من العظام لعدد من الموتى ألقيت على أرضية من الرمل الناعم ، الكبيرة منها مرتبة بالتوازي والصغيرة دون انتظام ووضعت الجماجم على حده · تمثل الجماجم رجالا ونساء وأطفالا مصطحبين بأعداد كبيرة من الاواني الفخارية ، في معظم الحالات وعاء من البازلت وحالات أخرى وعائين ، دبسه أما من الرخام ، الحجر القاسي أو البازلت ويظهر أن الاسواره كانت هدية نادرة ·

هنالك شكلان رئيسيان يغلب وجودهما بين الاواني الفخارية : أ) جره محلاه بأذنيين أحيانا واحدة بين الحافة والكتف و (أو) بيدين ملصقتين على الجانب · ب) صحن عميق قاعدته منبسطة وحافته منحنية الى الخارج · كثيرا ما يكون القسم العلوي من الاواني مزخرفا بصفوف من نقاط متلاصقة محفورة (صف واحد في أغلب الاحيان) · جميع المكتشفات الفخارية مصنوعة من طينه واحدة بواسطة يد ماهرة ولم يهتد صانعوها الى عجلة الفخار كما هو الحال في عصور متأخرة · نجدها من الخارج مغطاة بقشرة رقيقة مصقولة ويظهر عليها من جراء الشوي لمعان بين الرمادي والاسود ، وتشير أدلة كثيرة على أنها صنعت خصيصا لتدفن مع الموتى ولم يسبق أن استعملت لاغراض أخرى ·

اقتصر وجود هذا الصنف من الفخار في أغلب حالات هذه المرحلة على القبور كما تبين من المصادر المنوه عنها أعلاه الا أنه كشف عنها في أرضيات سكنية تكاد تخلو من الابنية كما هو الحال في أريحا [٩] ، تلول أبو العلايق بالقرب من أريحا [١٠] ، حفر سكنية في تل الفارعة قضاء نابلس [١١] ، خربة الكرك على بحيرة طبريا [١٢] ، في مرج ابن عامر [١٣] ، ميصر [١٤]

٩) B. Hennessy,
The Foreign Relations of Palestine during the Early Bronze Age, London (1967), Square E III-IV.

١٠) J. B. Pritchard,
The Excavations at Herodian Jericho 1951, in: AASOR 32-33 (1958), p. 14ff.

١١) R. De Vaux RB 68 (1961), p. 563f.

١٢) B. Meisler and M. Stekelis,
The Excavations at Beth Yerah(Khirbet el-Kerak), in: IEJ 2 (1952), p. 165ff; 218ff.

١٣) كثيرا ما توجد مكتشفات هذا العصر مصنفة تحت اسم حضارة مرج بني عامر Esdraelon Culture حيث وجدت لاول مرة والمواقع المهمة المعنية : تل التلسم في المراحل V-VI والطبقات XX-XIX راجع :
M. Dothan ,
Some Problems of the Stratography in Megiddo XX, in: EI5 (1958), p. 38ff.
K, Kenyon ;
Some Notes on the Early and Middle Bronze Age Strata of Megiddo, in: EI 5 (1958), p. 52ff.

١٤) عغولة (في بعض الحفر السكنية) ، راجع :
E. Sukenik ;
Archaeological Discoveries at Affula, in: JPOS 21 (1948), p. 1ff.
Ibid ;
Late Chalcolithic Pottery from Affula, in: OEQ 68 (1936), p. 150ff.

طبقات XVII-XVI في بيسان ، راجع :
G. M. Fitzgerald; The Earliest Pottery of Beth Shan.

(Meser) تل الأساور [١٥] ، وعدد من المواقع في غور الاردن أهمها : تل أم حماد الشرقي [١٦] تل الشونه [١٧]

تم الكشف في باب الذراع عن مخيم سكني لم تكن أساساته واضحة المعالم الا أن لوجودها أهمية كونها تنسب الى أقدم مقابر الموقع التي أوجزت مزاياها ·

يختلف العاملون في الآثار الفلسطينية في تسميةهذه الفترةفيطلق عليها وليم أولبرايت [١٨] (Late Chalcolithic)الأب ديفو Eneolothique Superieur (Chalkolitique superieur) وأخيرا [١٩] كنيون وبازل هنسي [٢٠] ، (Proto Urban A.B.C.) وبول لاب وأرنست رايت وروث أميران [٢١] ، (Early Bronze I,A,B,) في الحقيقة لم يكن الخلاف بين هؤلاء اسميا بل أن هناك تباين في المفاهيم في النظرة الى التقلبات الاجتماعية والحضارية وتفاوت في النتائج المترتبة على أعمال الحفر وتصنيف المكتشفات في المواقع الاثرية المختلفة والتي من شأنها تقرير الانتقال من عصر الى آخر · على أي حال ليس من السهل على طلاب الاثار فهم وجهات النظر المنوه عنها · ان دراستي للمادة مع تبعيتها للارضيات السكنية تشير الى أن الجماعات التي خلفت لنا مثل هذه المقابر قد غيرت الكثير في أساليب حياة ومعطيات سكان فلسطين مما يجعلنا نعتقد أنه مع قدومهم قد دخلت المنطقة عهدا جديدا من المفضل تسميته العصر البرونزي القديم الاول [٢٢] (مرحلة مبكرة) الذي تلا العصر الحجري النحاسي وليس جزءا منه مع أن التسمية (Proto Urban) تتناسب وواقع الشعب الجديد الا أنها تبدو غير مرضية اذ ترتبط مع ما تبع من تطور · تتفق هذهالدراسة في تقسيم مراحل العصر البرونزي القديم بشكل عام مع البينات التي ظهرت عند بول لاب في باب الذراع ، ولا مجال هنا للدخول في تفاصيل النقاش حول هذا الموضوع ·

يستنتج من تصنيف للمكتشفات في باب الذراع (خاصة الاواني الفخارية) ومن التقلبات الطارئة على أقدم مجموعة من القبور ، والتي صعب تميزها ، بأن ثلاثة استعمالات ضمن عصر واحد قد مرت عليها يسميها بول لاب [٢٣] · (EB IA, B, C) معالم مثل هذا التطور يظهر أيضا عند كاثلين كنيون لدى دراستها لمقابر أريحا (Proto Urban C.) مع العلم بأن (Proto Urban A.B.) غير ممثل في أريحا وتبحث عنه كنيون في مواقع أخرى في فلسطين [٢٤] ·

يجعلنا هذا التصنيف مع ما يرافقه من أدلة

١٤) M. Dothan
IEJ 7 (1957), p. 127f.; 217ff.
IEJ 9 (1959), p. 13ff.

١٥) M. Dothan
IEJ 3 (1953), p. 263.

١٦) N. Glueck
A Chalcolithic Settlement in the Jordan Valley, In: BASOR 97 (1945), p. 10ff.
M. Ibrahim
Leistenbenkelkeramik ... Appendix, Tel Umm Hammad as-Sarqi (unpubl.)

١٧) H. de Contenson
Three Soundings in the Jordan Valley, in: ADAJ IV-V (1960), p. 12ff.
انظر Ibrahim حاشية ١٦ Tel as-Suña

١٨) W. Albright
COWA, p. 58

١٩) R. De Vaux
RB 68 (1961), p. 588ff;
P. Lapp
RB 74 (1967), p. 539ff.

٢٠) K. Kenyon
Archaeology in the Holy Land, p. 84ff;
Jericho 1, p. 4 ff
Jericho 11, p. 3 ff
J. Hennessy
The Foreign Relations....., p. 6ff.

٢١) لا يتفق الثلاثة في تفاصيل هذه التقسيمات بالاضافة الى ان ارنست رايت استعمل سنة ١٩٣٧ في رسالته الاصطلاح كالكوليثي متأخر وغير رأيه فيما بعد ؛ راجع :
E. Wright
PPEB; EI 5 (1958), p. 37ff.
BASOR 189 (1968), p. 12ff.

٢٢) انظر Ibrahim حاشية ١٦ ·

٢٣) P. Lapp
Palestine in the Early Bronze Age, in: Near Eastern Archaeology in the Twentieth century, Essays in Honor of Nelson Glueck, New York (1970), p. 101ff.

٢٤) انظر حاشية ٩

أخرى تميل الى الاعتقاد بأن أصحاب القبور الذين غالبا ما قدموا من الشمال على شكل موجات رئيسية ثلاث قد استوطنوا المناطق الخصبة كالساحل السوري الفلسطيني ومرج ابن عامر والاغوار وبعض المناطق الجبلية مثل القدس ومنطقة الخليل وبعض المواقع في شمالي الاردن · وقد أمكن تتبع قدومهم الى فلسطين وجنوبي سوريا في عدة دراسات [٢٥] ، واستنتاجا من مقارنات للادوات التي عثر عليها في القبور مع ما عاصرها في مصر وشمالي سوريا فقد كان الشعب الجديد على علاقة وثيقة مع شعوب المنطقة المجاورة وأصبح معها تبادل حضاري وعلاقات تجارية [٢٦] ·

لم تكن هذه الجماعات متحضرة وأخذت تمارس حياة الرعي وانصاف البداوه ولربما أيضا حياة زراعية بدائية ولا بد أنهم استفادوا من حضارة من سبقهم في المنطقة في الالف الرابع ق·م ،هذه الحضارة التي كانت منتشرة على نطاق واسع في ضفتي الاردن [٢٧] وادخلوا الكثير من معرفة وتقاليد أخرى في الوطن الجديد ·

كشفت الحفريات أيضا عن مخيم لم يستوف الدراسة بعد وبمكن أن ينسب بدون تردد الى الجماعات الاولى التي قطنت باب الذراع ، الا أنه لم يبق الامر على هذا الحال اذ تطور فن العمارة في العصر البرونزي القديم الثاني والثالث فظهرت أبنية للسكن محاطة بسور حصين وأدخلت تحسينات على البضائع كما استعملت عجلة الفخار في صنع الاواني الفخارية الملونة وغير الملونة وأصبحت وسائل الانتاج تقترن بحياة المدينة ، غير أنه من الملاحظ أن هذا التطور لم يتم بسرعة كما هو الحال في أريحا القديمة حيث أقيمت في أواخر العصر البرونزي القديم الاول (المرحلة المبكرة) أبنية سميكة من الحجر والطوب على أساسات من الحجارة الثقيلة وذلك تبعا لتقليد خاص في فن العماره اتضحت معالمه في أريحا [٢٨] ، وسرعان ما تضاعفت هذه الابنية معززة بتحصينات تبقى هذه المخلفات تمثل مرحلة انحطاط في العمارة الفلسطينية اذا ما قورنت بما سبقها من حضارة تعرف باسم حضارة غسول ـ بئر السبع ·

النوع الثاني من قبور باب الذراع (Charnel huose) (لوحة ٣ ـ أ) عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل جدرانها مبنية من الطوب على طبقة من الحجارة غير المنتظمة ، أطوالها ٥٠ر١١ × ٥٠ر٥م حتى ٧ × ٥م ، (لوحة رقم ٣ ـ ب) تبين مدخلها في الجانب العريض كما هو الحال في المعابد والبيوت الكنعانية · يغطي جانبي المدخل لوحتان حجريتان ولوحة أخرى أغلق بها · يوصل المدخل بأرضية الغرفة درجة أو درجتان · غالبا ما رصفت أرضية الغرف بالحصى · أعيد استعمال هذه القبور أكثر من مرة في العصر البرونزي القديم الثاني والثالث ·

وقد شوهد حريق شمل عددا من هذه المقابر وتشير الدلائل أن عملية الحريق كانت قد تمت من قبل مهاجمين للمنطقة في النصف الثاني من الالف الثالث ق·م وأعطى فحص المواد المحروقة أرقاما تتراوح ما بين ٢٤٠٠ ـ ٢٣٠٠ ± ٢٥٠ق·م

موجودات هذه القبور : أكوام من العظام والاواني الفخارية بلغ ارتفاعها أحيانا أكثر من المتر بعض هذه الاكوام كانت مصنفه حسب أحجام العظام ، فيظهر أن العظام الكبيرة وضعت على جانب ، الصغيرة على جانب آخر والجماجم منفصلة عنها وكذلك حال الاواني الفخارية ، الا أنه عثر أيضا على هذه الاكوام بشكل يخالف هذا التصنيف · الاواني الفخارية مصنوعة على العجلة كما هو الحال في معظم فخار العصر البرونزي القديم الثاني والثالث من هذه الاواني

٢٥) انظر De Vaux حاشية ٧ Ibrahim حاشية ١٦

٢٦) H. Kantor
The Early Relations of Egypt with Asia, in: JNES I (1942), p. 185; Tab. p. 205.
انظر ايضا حاشية ٩ Ibrahim حاشية ١٦

Excurs III, IV

٢٧) للاطلاع على مدى انتشار حضارة ما قبل المهاجرين الجدد، راجع ما كتبه ديفو حاشية ٧ ، كذلك رايت حاشية ٢١

٢٨) انظر حاشية ٦

ما هو مصقول ومغطى بقشرة رقيقة ملساء أو مطلي بأشكال هندسية ، وألصق على جوانب العديد منها أياد مختلفة الاشكال والاحجام وموضوعة أفقيا ·

وهناك عدد وافر من الاواني المعروفة بأباريق أبيدوس Abydos-Shaped pots مصرية الاصل كما عثر فيها على لوحات ودبسات من الحجر ومجموعات من الخرز وكذلك أسلحة تضم فؤوسا وخناجر طويلة · وقد عثر على بقايا قماش وخشب شمله الحريق

يوجد قبر واحد (لوحة ٢ ـ أ) مستدير الشكل يختلف عن بقية المقابر بمحتوياته التي يعيدها الحفارون الى أواخر العصر البرونزي القديم الاول (٢٩) (EB Ib) كما أن الطوب المستعمل في جدرانه غير منتظم الشكل بخلاف المقابر المستطيلة الا أن نظام المدخل يطابق الوصف أعلاه ·

النوع الثالث والاخير Cairn burials عبارة عن حفرة مفرغة مقطوعة في الطين وجد في كل منها هيكل عظمي واحد بصحبته بضعة أواني فخارية صنعت باليد عدا العنق الذي تظهر عليه آثار العجله · وقد ملئت الحفر بالحجارة لتشكل فى النهاية كوما فوق سطح الارض ·

في الحقيقة أن هذه المقابر ليست متجانسة في أشكالها الا أنه لم يكشف الا على عدد قليل منها مما لا يسمح بتصنيفها من جديد · على أي حال تختلف هذه المقابر مع موجداتها عن النوعين سالفي الذكر وتنسب الى الجماعة الذين جاءوا الى البلاد في أواخر الالف الثالث ق·م ودمروا المنطقة فيكون قد قضي مع قدومهم على حضارة العصر البرونزي القديم التي استغرقت مدة تزيد عن ألف سنة ، التسمية المقترحة لهذه الفترة هي: المرحلة الانتقالية بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط · لا يؤخذ بهذه التسمية من قبل جميع العاملين في الاثار الشرقية فيطلق عليها بول لاب : (٣٠) Intermediate Bronze Age I كاثلين كنيون (٣١) Early Bronze — Middle Bronze أميران وأولبرايت وغيرهما: (٣٢) Middle Bronze I, رولان ديفور : (٣٣) Early Bronze IV

مع أن النقاش حول هذا الموضوع معقد وطويل الا أنه هام وممتع ولم يصل الى نهايته بعد وقد تطرق اليه المؤلف في أطروحته وخلاصة القول أن أصحاب القبور هم جماعة رحل غير متحضرين ولا شك أنهم ساميو الاصل وليس من البعيد أنهم جاوروا سكان المدن في فلسطين وشرقي الاردن كما هو الحال في شمالي سوريا والرافدين لفترة طويلة وقاموا بغزوات متعددة الى أن أمكنهم القضاء على أعدائهم من سكان المدن رغم تحصينها بعد ذلك قطنوا المناطق المحتلة في مخيمات سكنية · ومن الواضح أنهم لم يأتوا بعادات وتقاليد جديدة بل أخذوا الكثير من تقاليد ولربما معتقدات السكان القدماء هذا ما يظهر من أسلوب دفن موتاهم ، وأشكال الاواني الفخارية والادوات المعدنية التي لا تختلف بطابعها العام عما عرفناه في العصر البرونزي القديم

لم تكن هذه المرحلة الانتقالية لنشاهدها فقط في الجنوب من سوريا ، بل ان هناك أدلة واضحة على وجودها في مصر وبلاد ما بين النهرين ، أي أنها شملت معظم بلاد الشرق (٣٤) ، وأن المجموعات القبلية وراء هذا التحول هي نفسها التي ترد في سجلات السومريين والبابليين

(٢٩) P. Lapp, The Dhahr Mirzbaneh Tombs, New Haven (1966), p. 116.

(٣٠) K. Kenyon, Jericho I, p. 180ff Jericho II, p. 32ff.

(٣١) W. Albright, The Archaeology of Palestine, London (1961), p. 80

(٣٢) R. De Vaux, Palestine in the Early Bronze Age, CAH 46, (1966), p. 8

(٣٣) R. Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land, Jerusalem (1969), p. 79ff.

(٣٤) P. Lapp, The Dhahr Mirzbaneh..., p. 86ff.

القدماء [٣٥] فقد عرفوا بالسومرية باسم «مارتو» والبابلية القديمة باسم « أمـورو » ، حتـى أن نصوص مدينة مارى البابلية تشير الى أسماء عدد من هذه القبائل مع الدور الذي لعبته في تسلم مقاليد الحكـم في شمالي مـا بيـن النهرين ٠ وبالنسبة لآثـارهم في بـاب الذراع فيظهر أن المنطقة كانت من نصيب هذه القبائل في الغزوات الاولى وهذا ما يبرر التسمية المرحلة الانتقالية الاولى : Intermediate Brone zI التي تنطبق على عدد آخر من المواقع التي عثر فيها على مثل هذه القبور ٠ ويرى بول لاب دلائل للمرحلة الانتقالية الثانية Intermediate Bronze II ممثلة في عدد من قبور ظهر مرزبانه في أواسط فلسطين كان قد أشرف بنفسه علـى حفرهـا ودراستها [٣٦]

هناك عدد كبير من المواقع التي عثر فيها على مثل هذه القبور من أهمها [٣٧] : أريحـا تـل أكتانو في غور الاردن ، تل المتسلم في مرج ابن عامر ، ظهر مرزبانه وعين سامية والجيب شمالي القدس ، تل الدوير وتل العجول جنوب فلسطين، عمان والحصن في شرقي الاردن ، يمكن لدارسي هذه المكتشفات تصنيف القبور بشكـل دقيـق واظهار الفوارق بينها وهذا ليس مجال بحثنا الا أن العلماء متفقون تقريبا على تأريخها بعدالمرحلة الثالثة من العصر البرونزي القديم وأنها متصلة بالتقلبات السياسية والعسكرية التي تميز نهاية هذا العصر ٠

ليس لدينا أي دليل بأن الموقع قد استعمل في العصر البرونزي المتوسط أو بعد ذلك ويظهر أنه هجر كليا وغالبا ما يعود ذلك الى أسباب تتعلق بصعوبة تحصينه ٠

فأهمية باب الذراع تعود الى كبر حجم المقبرة مع تنوع المقابر ومحتوياتها والتي نستطيع مـن خلالها استقراء حلقة كاملة للتسلسل التاريخي في الالف الثالث ق٠م كما أننا لم نشهد مقبرة تضاهي باب الذراع في غناها بالموجودات ٠ وهذا يشير الى أن الموقع كانمركزا حضاريا هاما لمنطقة واسعة الاطراف اذ لا يعقل أن تكون هذه المقابر التي قدر عددها بأكثر من ٢٠ ألف قبر لمنطقة محصورة في باب الذراع أو أنها كـانت مجرد مقبرة تدفن بها الموتى بل أنها على علاقة وثيقة بديانة ومعتقدات السكان ٠

مع أن أعمال البحث والاستقصـاء لم تصـل نهايتها الى أننا لا نتردد عن القول بأن مواقـع العصر البرونزي القديم في المنطقة الممتدة مـا بين البتراء ومأدبا محدودة ، والمعروف منها مبين على الخارطة (لوحة ٥) وهي بدورها غالبا ما تمثل مرحلة متأخرة من العصر البرونزي القديم

يتضح من خلال دراسة المنطقة المشار اليها أنها كانت تضم عددا كبيرا من المخيمات السكنيـة والتي لجأ سكانها الى باب الذراع لاداء الطقوس الدينية وفي مرحلة معينة لتقديم الضرائب التي فرضتعليها من قبلرؤساء دينيين أو سياسيين٠

كما أننا نستدل مـن المكتشفـات والظـروف المحيطة بها على أن في باب الذراع تطور حضاري فيه نوع من التجانس ، اذ لا يشاهد انقـلاب مفاجيء في وسائل الانتاج التي تتضح من خلال ما كشف عنه ٠ والملاحظ في كل المراحـل أن الناس الذين تعاقبوا على المنطقة احترموا مخلفات من سبقهم واستعملوا المنطقة ذاتها دون مساسها بأذى الا هؤلاء الذين تنسب اليهم المقابر المتأخرة، فقد هاجموا ودمروا العديد من المدن البرونزية القديمة كما وأنهم نبذوا حياة المدنية وفضلـوا العيش في مخيمات تارة ومتنقلين تارة اخرى ، ومع ذلك فقد قلدوا من سبقهم في كثير مـن العادات مثل دفن الموتى وصناعة الاواني الفخارية والادوات المعدنية ٠

٣٥) D. O. Edzard
Die Altoriêntischen Reich I, Fischer Weltgeschichte, Frankfurt (1965), p. 167ff.
K. Kenyon
Amorites and Canaanites, London (1966), p. 6ff.

٣٦) انظر حاشية ٣٠ ٠

٣٧) توزيع القبور مع اوجه المقارنة بينها مبين عند لاب ، راجع حاشية ٣٠

كما يستدل من التطور الذي نشاهده من خلال صناعة الفخار وأشكاله ومن التقاليد المتعارف عليها في أقدم القبور الى أن انتهى ذلك بالقضاء على الحضارة في نهاية الالف الثالث ق٠م ، ان ذلك لم يكن من مخلفات شعوب مختلفة وانما ذلك كله تركة شعب واحد ، كما وأنه لا يشاهد انقلاب مفاجيء في المفاهيم والحياة اليومية ٠ لذا يستحسن أن يعطى هذا التطور تسمية تتفق معه وهي : العصر البرونزي القديم ، نلاحظ من خلاله مراحل مختلفة نتيجة لبعض التحولات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية ٠

ومن الملاحظ أن بعض الموجات البشرية قد جاءت واختلطت بسكان المنطقة ، أهمها التي جاءت من الشمال في المرحلة الثالثة للعصر البرونزي القديم EB III (حوالي ٢٥٥٠ – ٢٢٧٥ ق٠م) والذين من مخلفاتهم فخار مصقول بالالوان (أحمر فاتح وبني وأسود) وتزينه زخارف بارزة ويعرف هذا الفخار باسم فخار خربة الكرك من مميزات هذه المرحلة أيضا أبنية مستديرة ، أوضحها التي وجدت في خربة الكرك قرب بحيرة طبرية والمنسوب اليها الفخار المشار اليه والذي ظهر منه أمثلة في باب الذراع ٠

ينتهي تاريخ باب الذراع مع نهاية العصر البرونزي القديم اذ قضى جماعة « أمورو » على تلك الحضارة كما تبين أعلاه ٠ لم تسلم المدينة المحصنة أو القلعة شمالي الموقع من هجومهم كما تبين ذلك من الحفر التجريبية فيها ٠ أطوال هذه المدينة ٣٤٠ × ١٣٠ م ويحيط بها سور من الطوب عرضه ٣م وأبراج تحصينية تم الكشف عن واحد منها في الطرف الشرقي ٠

أصبح للمدينة فيما بعد سور منيع من الحجر بلغ سمكه حوالي ١٣م وقد تبين أن القبور المستطيلة (Charnel houses) هي من مخلفات سكان المدينة ، الا أنه لم يعثر الى الان على بيوت تعاصر النوعين الاول (Shaft tombs) والثالث Cairn burial كما أنه لم يكشف النقاب بعد على مباني هامة في المدينة ٠

لم يترك لنا سكان المنطقة القدماء أية آثار مكتوبة ، الامر الذي يتعذر فيه علينا اعطاء أرقام تاريخية دقيقة للمراحل الزمنية التي مر بها المكان ٠

ان دراسة مكتشفات باب الذراع المحفوظة الى الان في المدرسة الامريكية للابحاث الشرقية في القدس العربية ومتابعة أعمال الحفر والاستقصاء الاثري في الموقع نفسه ومواقع أخرى حوله ، ستكشف حتما عن تفاصيل وأدلة أخرى تبرز من خلالها المكانة الحضارية التي كان يتمتع بها باب الذراع عبر مراحل العصر البرونزي القديم ومدى انتشار حضارة هذا العصر في المنطقة ٠

الدكتور معاوية ابراهيم

رئيس قسم الحفريات

دائرة الآثار العامة ـ عمان